الكونت تولستوي الروسي

تابع ما قبلهُ

ختمنا الكلام في الجزء السابق بما جرى على المائدة بعد الطعام . قال المستر كنان صاحب الحديث ولم تحن لي فرصة حتى الآن لاري الكونت وصف اعتصاب الصوم الذي وعدت بان اريهُ اياهُ فلما عدنا الى غرفة الاستقبال عدت الى الكلام على معاملة المنفيين في سيبيريا واخرجت الكتاب واريتهُ اياهُ وفيهِ وصف مسهب لما حلَّ باربع نساء من المتعلمات المتهذبات اللواتي تآمرنَ على الصوم وبقينَ من غير طعام ستةَ عشر يوماً لكي ينجينَ مما حسبنهُ قساوةً بربرية لا تطاق . وقد كتبت كتاب الوصف مدام روسيكوفا احدى المعتصبات وهرَّبهُ من السجن سجين آخر كان سجنهُ قريباً من سجنها فجعل الكونت يقرأُ الكتاب ويقطب وجههُ وبان لي من كلامهِ انهُ اطلَّع على حوادث كثيرة مثل التي فيهِ ويئس من اصلاح الحال ثم قال لا شبهة عندي في ان افعال هؤلاء المنفيات تشهد لهنَّ بالبسالة والشهامة ولكنني لا ابررهنَّ في ما فعلن لان فعلهنَّ مخالف لمقتضى الحكمة ولو اتبع المنفيون كلهم رأيي قبلما جاهروا بالعصيان لافادوا روسيا فائدة لا تقدَّر . فان رأيي هو الثورة الحقيقية التي تنفع البلاد فلو اتفق اهالي البلاد على ان لا ينتظموا في الخدمة العسكرية ولا يدفعوا الضرائب للانفاق على الجيش لتقوضت دعائم الحكومة الحاضرة . والطريق الوحيد لمقاومة الشر هو ان يمتنع الانسان عن فعل الشر لنفسهِ ولغيرهِ

فاستغربتُ مناداتهُ باسلوب ثوروي لا يمكن العمل بهِ على ما ارى وقلتُ لهُ ان الحكومة تجبر الناس على دفع الضرائب وعلى الخدمة العسكرية وعليهم ان يدفعوها ويتجندوا والاَّ اودعتهم السجون

فقال هذا ضرب المحال لانها لا تستطيع ان تسجن الامة كلها وان سجنتها حصلت الغاية المطلوبة لانها تمسي بلا مال وبلا جنود

فقلت ولكن يستحيل عليك ان تجعل الامة كلها تتفق على امر واحد وتفعلهُ في وقت واحد . وقد تستطيع ان تقنع مئة الف او اكثر من الفلاحين ليعملوا برأيك ولكن هل تترك وشأنك . كلاَّ بل حالما ترى الحكومة ان آراءك عاملة على الاضرار بها تمنعك عن التمادي في عملك . وهبْ جدلاً انك استطعتَ ان تقنع ربع السكان كلهم فان الحكومة تستطيع ان تجند من الثلاثة الارباع الباقية ما يكفي للقبض على الربع الذي اتبعك ووضعهِ في السجون او نفيهِ الى

سيبيريا وتنتهي هناك آراؤك وامانيك . ولا ارى لك سبيلاً الاَّ ان تنال من الحكومة حرية العمل بالسلم ان امكن او بالثورة اذا دعت الحال ولا تستطيع ان تعلّم الناس بغتهم كيف يعيشون و يعملون ما دام في البلاد قوة اخرى ماسكة بخناقك تخمد انفاسك اذا فتحت فاك او رفعت يدك فكيف تفلح وانت كما انت

فقال اذا حقَّ لكَ ان تقاوم الشرَّ بالشر حقَّ لكل احد غيرك ان يقاوم ما يحسبهُ شرًّا فتمتلئ الدنيا من الحرب والخصام ولذلك يترتب عليك ان تعلّم الناس بوجود طريق آخر غير الشر لمقاومة الشر وهو طريق النصح والارشاد

فقلت ولكن اذا رأيتُ امامي رجلاً يضربني على فمي كلما حاولت الكلام فكيف استطيع النصح والارشاد

فقال اذًا تكون قد امتنعت عن ضربه كما ضربك فتريه بفعلك هذا انك ترفعت على خلَّة الانتقام البربرية ثم ان خصمك يكف عن ضرب رجل لا يقاومهُ ولا يبقي نفسهُ . وقد ارتئى نوع الانسان بالذين تألموا لا بالذين ألَّموا غيرهم

فقلت ان الشكوى والتذمر لم يرقيا امَّة من الامم ولم ينل احد حقَّهُ الاَّ بالقوة وسفك الدماء على ما يظهر لي من تاريخ العالم . والامة التي ترضخ للذل وتسكن الى الهوان لا تنال حرية ولا راحة

فقال ان تاريخ الانسان تاريخ ظلم وجور وحرب وخصام والناس مختلفون تمام الاختلاف في تحديد الظلم والجور فاذا ابحتَ لكل احد ان يقاوم ما يحسبهُ ظلمًا وجورًا ملأتَ الدنيا بالحروب والخصومات

فقلت ولكن ان كان الظلم نافعًا للظالم ورأى انهُ يستطيع ان يظلم غيره ولا زاد له ولا مطالب فهل يرجى ان يعدل عن ظلمه . و يظهر لي ان تعليم السلام الذي تعلّم به يقسم الناس فئتين فئة قاهرة ظالمة تجد الظلم نافعًا لها فلا تحول عنهُ وفئة مقهورة مظلومة تعدُّ المقاومة اثمًا فتخضع للذل ابد الدهر

الاَّ انهُ بقي مصرًّا على رأيهِ وهوان الظلم لا يزول بمقاومته بالقوة بل بمقاومته بالخضوع واجتناب كل عمل من مقتضاهُ مقاومة الظلم بالظلم والقوة بالقوة . وبعد حديث طويل على هذا الاسلوب طلب مني ان امشي معهُ فالتقينا بابنته الكبرى راجعة من مساعدة بنات الفلاحين وهي لابسة مثلهنَّ ثوبًا احمر مفتوح الصدر وشعرها مضفور جدائل على ظهرها وفي عنقها مسبوط من الخرز الملون فلم اعرفها لو لم ينادِها ابوها باسمها . وظهر لي انها من رأيهِ في

وجوب مشاركة الفلاحين في اعمالهم مساعدةً لهم . وهو نفسهُ قضى الصباح في تفريق السماد في اطيان امرأة مسكينة وكان جازماً ان يعود الى تفريقهِ بعد الظهر لو لم اشغلهُ عنهُ . وقد قال لي في هذا الصدد انهُ يجب على كل انسان ان يساعد الفقراء الذين يحتاجون الى مساعدتهِ بالعمل بيديهِ في ما يعملون بهِ ولو ساعةً كل يوم فان ذلك انفع لهم مما لو بقي مقتصراً على عملهِ ومساعدهم بجانب من دخلهِ لانك اذا فعلتَ الامر الاول تكون قد ساعدت من يحتاج الى المساعدة وعلّمتهُ الاجتهاد والابتعاد عن الكسل واريتهُ ان العمل شريف لذاتهِ لا تأنف منهُ على علوّ منزلتك فيصير يكرم نفسهُ ويفتخر بالعمل ويقنع بما قسم لهُ واما اذا اقتصرت على اعمالك العقلية واعطيت الفقير جانباً من دخلك كما تتصدّق على المساكين بالصدقات اغريتهُ بالكسل والاتكال على الغير وفصلتَ بينهُ وبينك بحاجز حصين وامتّ الشهامة من نفسهِ واحييتَ بدلاً منها التذمّر والشكوى من العمل والطموح الى التخلّص من الحالة التي هو فيها والتطلّع الى الحالة انت فيها ليلبس لباسك ويجلس في مجالسك . وما هذا بالسبيل لمساعدة الفقراء ونشر الاخاء في الدنيا

فقلت اذا سلّمتُ معك ان مصلحة الانسان العظمى تقوم بان يفضل مصلحة غيرهِ على مصلحة نفسهِ وعائلتهِ فانت مصيب في كل ما قلتَ اي اني اذا سلمتُ بمقدماتك لم يبقَ لي سبيل للجدال معك في نتائجك . والذي يدهشني من مذهبك انهُ ليس مما يمكن العمل بهِ لان من يسعى لغيرهِ في احوال الناس الحاضرة يضحي مصلحتهُ ومصلحة عائلتهِ لانهُ لا يجد احداً آخر يفعل فعلهُ لكي يتبادل النفع

فقال على مَ لا تسلم بمقدماتي فانهُ اذا فعل كل احد الخير مع غيرهِ بدلاً من الشر صار الناس اصلح كثيراً مما هم الآن . أوَ لا يجب على كل احد ان يصلح حال المجتمع الانساني حتى يصير كل واحد منهُ يفعل الخير بدلاً من الشر فان كنتُ احتمُ واسعى لايجاد هذه الحالة الفاضلة التي تنفى بها الشرور من الدنيا فعلى مَ تقول ان سعيي وآمالي مما لا يمكن العمل بهِ . واذا اريد الوصول الى تلك الغاية فلا بدَّ من ان يشرع احد ما في السير اليها ويثبت امكانها وان كانت احوال المجتمع الانساني الحاضرة تجعل هذا السعي صعباً فذلك لا يرفع المسؤولية عني ولا يمنعني من السعي لان بحثنا ليس عمّا هو الاسهل بل عما هو الواجب . وليس في حال المجتمع الانساني الحاضر ما يمنع تغييرهُ بل هو نتيجة افعال الانسان وبافعال الانسان يُغيَّر ولا بدَّ من تغييرهِ وانا باذل اقصى جهدي في هذا السبيل

ثم قصَّ عليَّ كيف تغيَّرت آراؤهُ في تعاليم المسيح وكيف وجد فيها مفتاحاً لحل اعوص

المسائل الاجتماعية وبنى عليها مذهبهُ في ان الشر يجب ان لا يقاوم بالشر وعداهُ لمحاكم القضاء وامتياز الناس في المراتب واختصاصهم بالاملاك وكل الشرور المدنية . وقد يُظَن من كثرة ما يستشهد بالانجيل انهُ من المسيحيين المتدينين ولكن تعاليمهُ تدلُّ على انهُ بعيد عن ذلك بعدًا شاسعًا فهو منكر للفداء والثالوث والوهية المسيح ضعيف الاعتقاد بخلود النفس . وديانتهُ عالمية مبنية على المصلحة العالمية فاذا اشار الى المسيح وتعاليمهِ لم يشر اليهِ كالهٍ بل كانسان علَّم تعليمًا فلسفيًّا يراهُ اصلح كل تعليم لنوع الانسان وهو من هذا القبيل كوحي الهي ولا بدَّ من العمل بهِ حرفيًّا من غير تفسير ولا تأويل وقد قال المسيح لا تقاوموا الشر فيجب ان لا تقاوم الشر مطلقًا من غير قيد

وجلنا في اراضيهِ غير قاصدين مكانًا معينًا ونحن نتباحث ونتجادل ولم يبقَ في ذهني صورة شيء مما وقع نظري عليهِ لاني كنت مشغولاً عن ذلك كلهِ بما اسمعهُ منهُ وما ارادهُ في وجههِ من الامارات والمعاني الدالة على صدق نيتهِ وخلوص طويتهِ

وفي اخريات النهار امطرت السماء قليلاً فاضطررنا ان نعود الى البيت ودعاني الى مكتبتهِ وهي غرفة صغيرة ساذجة لا شيء فيها سوى سرير ضيق من الحديد وكرسي من الخشب المدهون وطاولة عليها غطاء اخضر قديم وحول جدران الغرفة رفوف الكتب وهي كثيرة واكثرها غير مجلَّد وفوق الطاولة صورة رجل رومي من مشاهير الخارجين على الحكومة الروسية . وقال لي تأتيني مكاتيب كثيرة من اميركا من الذين قرأوا كتبي . وفتح درجًا وقال هاك مكتوبًا منها فقرأتهُ واذا هو من رجل في حراج بنسلفانيا كتب اليهِ يقول انهُ هو وكثيرون من اتباعهِ جروا من عهد طويل على الخطة التي ابانها في كتابهِ المعنون " ديانتي " وانهم انشأوا كنيسة خاصة بهم وبهذا التعليم . ثم قال لي ما رايك في كاتب هذا المكتوب ألا ترى انهُ لم يفهم مرادي لانهُ يظن ان الديانة تستلزم وجود كنيسة وقد كتبت اليهِ ان حسن السلوك لا يقتضي ذلك

ودخل حينئذٍ شاب بثياب الفلاحين آتيًا بالكونت تولستوي في البريد من الكتب والرسائل فظننتهُ خادمًا من خدمهِ ولم انهض لهُ لكن الكونت عرَّفني بهِ قائلاً انهُ فلان فاذا هو احد تلامذتهِ المشاركين لهُ في آرائهِ واعمالهِ وهو شاب متعلم مهذب درس في احدى المدارس الروسية الجامعة ثم تتلمذ لتولستوي واتبع مذهبهُ حرفيًّا فليس لهُ بيت ولا عقار آخر . يعمل للغير من غير اجرة ولا يتناول الاَّ طعامهُ ولباسهُ لا على سبيل الاجرة بل على سبيل الاشتراك حاسبًا ان من عندهُ طعام يجب عليهِ ان يشرك الجياع فيهِ ومن عندهُ اكسية

يجب عليهِ ان يكسي العراة بها . واذا خيم الليل نام حيث يجد لهُ مأوًى . فهو عائش لاجل الجماعة و يعتقد ان الجماعة مضطرة ان تقدم لهُ ما يحتاج اليهِ من طعام وشراب وكساء واواء. ولا يدفع مالاً للحكومة ولو قبضت عليهِ وعاقبتهُ لانهُ لا يريد ان يساعدها على ما يعتقد انهُ شرٌّ وظلم

وكان بين ما جاء بهِ هذا الشاب نسخة انكليزية من ترجمة كتاب تولستوي المعنون " دياتي " وهي اول مرة رآهُ فيها مترجماً الى الانكليزية وقد ترجم اليها عن الترجمة الفرنسوية فاتى باصلهِ الروسي ولم يزل خطًّا وطلب مني ان اساعدهُ على مقابلة الترجمة بالاصل فقابلنا ثلاث صفحات او اربعاً ثم قال ان الترجمة حسنة وقد حافظ المترجم على المعنى

ودار الحديث على رواياتهِ المترجمة فاخبرني ان بيت طباعة اميركي عرض عليهِ جانباً من المال عن كل نسخة يبيعها من رواياتهِ اذا سمح لهُ ان يقول انها الطبعة الوحيدة التي يكفل مؤلفها صحتها فاجابهُ رافضاً ذلك وقال انهُ لا يريد ان يكتسب شيئاً من رواياتهِ التي تطبع في بلاد اجنبية . وتكلم عن هذه الروايات بالاستخفاف حاسباً ان ما بذل في تأليفها من العناء وضعهُ في غير موضعهِ مضطرًّا لا مختاراً لان نشر آرائهِ الدينية ممنوع في بلاد الروس

فقلت لهُ اني رأيت كثيراً من مؤلفاتهِ الحديثة منسوخاً نسخاً او مطبوعاً طبع حجر ومنشوراً في بلاد الروس فقال نعم لان الحكومة منعتني من طبعها ولكنها لا تستطيع ان تمنع انتشارها. واحياناً تمنعني من نشر آرائي في صورة ولا تمنعني من نشرها في صورة أُخرى . فالآراء التي في كتابي " ايفان الاحمق " منعتني من نشرها كما هي فافرغتها في قالب رواية فاذن الرقيب بطبعها من غير اعتراض ومنعت من طبع كتابي " الاعتراف " لكنَّ خدمة الدين نشروهُ في مجلتهم وردُّوا عليهِ وقد بلغني ان الجمهور يطالع هذه المجلة ويسرق منها الاوراق التي ذُكرت فيها آرائي

ودعينا الى العشاء حينئذٍ ولبس النساء ثياب العشاء على جاري العادة واما الكونت فبقي بثيابهِ وبقيت انا بثيابي . وكان العشاء بسيطاً خالياً من كل ترف والحديث كثير النكاهة وكان الكونت اكثرنا هزلاً وضحكاً . وظهر لي انهُ يحب اولادهُ ويحبونهُ حبًّا شديداً . وافترقنا بعد العشاء وجلس الشاب الذي اتى بالبريد والسيدتان اللتان كانتا هنا منذ الغذاء وجعلوا يتذاكرون و يتجادلون وهم يقرأون كتاباً غير مطبوع من مؤلفات الكونت الحديثة . ثم دعتني الكونتس لشرب الشاي في غرفتها الخاصة باستقبال ضيوفها وتبعنا الكونت الى هناك ومعهُ ادوات السكافة وحذاء كان يصنع لهُ كعباً وظهر لي انهُ من الماهرين في صناعة السكافة

وانهُ يعمل بها في ساعات الفراغ و يعظم شأنها و يعتني بعمل حذاء اكثر مما يفتخر بتصنيف رواية وهو في غنى عن التأليف والتصنيف وعن كل صناعة لان املاكهُ تساوي ستمئة الف روبل او نحو مئة الف جنيه. وجعل يشرح لنا عمل الاحذية شرح عالم ماهر فقال لهُ في آخر الامر اني افضل ان اقرأ رواية من تأليفهِ على ان احتذي حذاء من عملهِ

ثم جرَّنا الحديث الى حكومة الولايات المتحدة الاجرائية فقال انها اخطأت في اضطهاد الصينيين والمورمون وخالفت مبادئها وتقاليدها . فسألتهُ عما اذا كان يعلم ما هو عذرنا في ذلك فقال قد لا اعلم فجعلت ابسط لهُ آراء الذين حملوا الحكومة على منع الصينيين من دخول بلادنا وابنت مقدار الضرر الذي نال بعض الجهات من نزولهم فيها لترخيص أجرة عمالها . فقال وهل هذه كل شكواكم منهم فقلت نعم اولا تكفي هب ان الصينيين هاجروا الى كليفورنيا مئة الف نفس كل سنة فانهم يلاشون عمراننا في تلك الجهات

فقال ولماذا لا يكون للصينيين حق في نزول كليفورنيا مثلكم . فقلت ألا يباح لنا ان نتخلص من اعتداء الغرباء علينا في مواطننا . فقال ولماذا تحسبهم غرباء ولماذا تضع هذا الفرق بينكم وبين غيركم اليس الناس كلهم اخوة سواء كانوا روسيين او مكسيكيين او اميركيين او صينيين

فقلت لهُ ولكن هب ان الصينيين كثروا كثرة فاحشة حتى اضطررنا ان نصيرهم عبيداً فهل تجيز ذلك . فقال وما ضركم ما دام الغرض من الحياة ان يعمل كل احد لغيرهِ سواء كان عبداً او حرًّا . ولما سمعت منهُ ذلك غيرت الموضوع لاني رأيت من العبث مجادلتهُ فيهِ

ثم دار البحث على الحكومة الملكية وعلى العقاب بنوع عام والعقاب بالقتل بنوع خاص فرأيتهُ مضادًّا لهُ كما انتظرت . وقال في عرض الحديث انهُ لما قُتل القيصر اسكندر الثاني وحُكم على القتلة كتب الى ابنهِ القيصر اسكندر الثالث يبين لهُ وخامة قتل الناس صبرًا وتوسل اليهِ ان لا يجعل فاتحة ملكهِ القتل وارسل كتابهُ الى رئيس المجمع المقدس الذي كان معلماً للقيصر اسكندر الثالث لانهُ ظن ان كلمتهُ مسموعة عند القيصر فاجابهُ هذا الرئيس انهُ موافق على قتل القتلة ولا يرى وجهاً للعفو عنهم ولا لعرض كتاب تولستوي على القيصر وختم كتابهُ بقولهِ " ان ديانتك ديانة الضعف والحنان وديانتنا ديانة السلطة والقوة "

وبقي الكاتب الى الساعة الحادية عشرة ليلاً ثم ودع الكونت واهل بيتهِ وعاد من حيث اتى . ولم يقتصر على ما اوردهُ من وصف هذه الزيارة بل عقَّب عليها بكلام حشوهُ الحكمة والبلاغة . قال وقد سألني كثيرون في بطرس برج وموسكو عما اذا كنت احسب الكونت

مخلصاً في دعواهُ لان البعض يظنون انهُ يلعب بعقول الناس لعباً فينهى عن اقتناء الاملاك ولهُ املاك واسعة لا يبيعها ولا يعطيها لاحد . وينهى عن الاهتمام بالاكتساب وهو يكتسب المبالغ الطائلة من بيع كتبهِ

ولعلَّ سبب ذلك ان عائلة الكونت زوجتهُ واولادهُ لا يوافقونهُ على آرائهِ فرأى انهُ اذا اراد ان يعمل على مقتضى مذهبهِ اوقع الشقاق والخصام في بيتهِ فاختار اخف البليتين . وقد اشار الى هذا الموضوع في فقرة نشرها حديثاً قال فيها

يقولون لي انكَ تعظ الناس ولا تفعل بما تعظ وهم مصيبون في ما يقولون واراني امامهم صامتاً لا احير جواباً . يقولون انك تعظ الناس ولكن لا تفعل حسبما تعظ نعم هم مصيبون وكان الواجب عليَّ ان اعظ الناس بافعالي قبل اقوالي . ويحي فاني مخطئ ملوم مستحق للازدراء والاحتقار لكني اقول لا تبرئة لنفسي بل ايضاحاً لواقعة الحال انكم لو قابلتم حاضري بماضيَّ لوجدتم اني باذل جهدي للعمل بما اعظ بهِ ولم اتمم حتى الآن جزءاً من ثمانين الف جزء مما يجب عليَّ اتمامهُ لا لاني لا ارغب في اتمامهِ بل لاني لا استطيع اتمامهُ . علموني كيف اتخلص من العراقيل التي انا فيها ساعدوني على اتمامها فاتمها . اللوم عليَّ لا على الآراء التي انادي بها . اذا كنتُ اعرف طريق بيتي واسير فيهِ سكران مترنحاً فاعنف على غير هدًى لا يؤخذ ذلك دليلاً على ان الطريق لا يوصل الى البيت ولا على اني لا اعرفهُ وان كان هذا ليس طريق بيتي فاروني طريقاً غيرهُ ولا تقولوا اني مخطئ بل تعالوا وساعدوني لكي لا اضلَّ ولا تحاولوا ان تزيدوا ضلالي بالنداء والصخب . يكاد قلبي ينصدع لاننا كلنا قد ضللنا وانا احاول بكل جهدي ان اعود الى الطريق السوى وانتم لا ترثون لي بل تعيرونني وتشمتون بي

هذا اعتراف رجل يسعى الى الخير فلا يستطيع ان يتغلب على ما فيهِ من الشر ويحاول النجاة من العراقيل التي ولد فيها فيجد دون النجاة منها خرط القتاد . وهذا رأي الكاتب فيهِ فقد قال انهُ لم يرَ اعترافاً اصرح من هذا الاعتراف ولا ابسط منهُ ولا اكثر اخلاصاً كما انهُ لم يقرأ اعترافاً ابلغ منهُ ولا اشدَّ تأثيراً في النفوس

هذا وسنذكر في الجزء التالي اقوال غيرهِ من مشاهير الكتَّاب الذين شاهدوا تولستوي وذاكروهُ وبنوا احكامهم على ما سمعوهُ منهُ وما قرأوهُ في كتبهِ . ونشفع ذلك بترجمة بعض الاقوال التي قالها ولا سيما في ما يتعلق بجرمهِ الاخير